المستشرفون

٢٨/ ٢/ ١٤٣٨هـ

أرْسَلَتْ رسالةً نصية على الجوال -على غير العادة- تقول فيها: أنقذني يا شيخ، فلقد سَرَتْ إلى قلبي عدد من الشبهات بسبب فضولٍ دفعني إلى الدخول إلى أحدِ مواقعِ الملاحدة، وما كنت أظنّ أنها ستسري في قلبي سريان النار في الهشيم!

كانت هذه رسالةً من إحدى الأخوات اللاتي عرفتهن بالحرص على طلب العلم الشرعي، وكانت أسئلتها تدندن حول العلم وطلبه.

هنا تذكرت تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته من استشراف الفتن عمومًا، كما في الصحيحين: «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تَشَرَّف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذًا فليُعذ به**»[1].

والشاهد قوله: «**من تَشَرَّف لها تستشرفه**» أي من تطلّع إليها على سبيل التسلية أخذته غَلَبَةً؛ لأن عادة الفتن أنها تعلو المستشرف لها.

(١) رواه البخاري (رقم٣٦٠١)، ومسلم (رقم٢٨٨٦).

ومجمـــوعُ ما ورد من ألفاظ هذا الحديث تشـــيرُ إلى أن كلَّ حركة غير مشروعة في الفتن يصل من الشر إلى المتحـــرك فيها بمقدار حركته منها، ومَنْ قَرُبَ منها جرّته إلى نفســـها، والخلاصُ في التباعد منها، والهلاك في مقاربتها[1].

وهذا الحديـــث وإن كان يعني بالأصالة الفتن المعروفة التي يُشـــهر فيها الســـيف، ويضطرب فيها حبل الأمن، وتموج بالناس موْجًا، إلا أن عموم اللفظ يتســـع للقول بأنها تشمل فتنة الشبهات، لعظم خطرها، بل هـــي بوابةٌ لأمر أخطر من فتنة القتل، فإن موتَ الإنســـان في فتنةٍ ما على الإســـلام، خيرٌ من موته ملحدًا أو شاكًّا في دينه بسبب عاصفة الشبهات التي عصفت به بسبب اسشرافه لها، إما عبر الكتب، أو مواقع الإنترنت، أو مواقع التواصل أو غيرها من الوسائط والقنوات الإلكترونية.

ويزيد هـــذا الأمر وضوحًا: مـــا ورد في حديث عمـــران بنِ حُصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -في خبر خروج الدجال- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سَمِعَ بالدَّجَال فلينأَ عنهُ، فوالله إن الرَّجُل ليأتيهِ وهو يحسِبُ أنه مؤمنٌ فيتَّبِعُهُ مما يبعثُ به من الشُّـــبهاتِ، أو لما يَبعَثُ بهِ من الشّبُهات**»[2] فيا سبحان الله! تأمـــل هذا اللفظ! كم تجد فيه من النصـــح والتحذير من الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه؟!

فلكم رأينا، وســـمعنا بأناس كانوا على الجـــادّة، ولم يكن شيء أحبّ إليهم مـــن العلم ومذاكرته، والـــترددِ على بيوت الله، وثنـــي الرُّكَبِ في

(١) ينظر: الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ١٤٩).
(٢) رواه أبوداود (رقم٤٣١٩).

مجالسِ العلم، مع عاطفة جياشة على أحوال المسلمين، يترجمها بالدموعِ والعمل، والعزمِ على إصلاح ما يمكن إصلاحه، يزيّن ذلك حُسنُ سمْتٍ في الظاهر، وعناية بالسنة، فما هو إلا أن يفجأك خبر هذا بتغيّر حادٍّ في بوصلة التفكير والاهتمامات، وبرودٍ في العواطف، وانقلابٍ في الاهتمامات، وتحول غريب في التصورات، ظهر أثره في البعد عن السمت الذي يوافق السنة إلى ما يخالفها!

فإذا بحثت عن السبب؛ وجدتَ هذا النوع من الاستشراف للفتن العلمية أحد أهم الأسباب، فلقد أضحى صريعًا لفتنة (الاستقلال)، وموضة (الحرية المفتوحة في النظر المعرفي). دخل إلى هذا العالم المليء بالأشواك، والبحرِ المتلاطم من الشبهات، ظانًّا أن معرفته وإيمانه كافيان لتبديد ظلمة الشبهات، والخروج من بحرها المتلاطم، وإذا به يُفاجأ بأن نور معلوماته ضعيف وخافت لا يضيء له ما بين يديه فضلًا على ما هو أبعد، وأن طَوْقَ نجاته أشبَه بالأسفنجة، تشرّب تلك الفتن، فغرق هو وطوقه الموهوم!

إنّ أصعب الحالات التي يمرّ بها قلب المسلم أن يعيش لحظات الشكّ في أعزّ ما يملك وهو دينه، والتشكيك في مصادره -الكتاب والسنة- فضلًا على أن ينتقل إلى حال التنكر لها بالكلية!

ومن دعاه فضوله إلى القراءة في كتب هؤلاء أو الدخول في معرّفاتهم، فليتذكر وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي سبقت: «**فمن وجد منها ملجأ أو معاذًا فليُعذ به**»، وليكن شعاره وهو يسمع بهذه المنافذ المشكّكة -التي تروّج باسم المعرفة والفكر والثقافة- أن يقول كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لما سيم على دينه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧].

ولا خير في معرفةٍ تورث شكًّا، ولا في فكْرٍ يورث كُفْرًا، ومَنْ لم يُرَ عليه آثار فكرِه وبحثه في سمته وطمأنينة حاله، وإصلاحِ واقعه، وقربه من الوحيين قولًا وعملًا؛ فلا يُنْتَظرُ منه أن يصلح غيره، فاللهم، إنّا نعوذ بك من الحور بعد الكور، وندعوك بما دعا به الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].